سورة الغاشية

سبب التسمية:

سميت سورة "الغاشية" بهذا الاسم لأن النبي ﷺ سماها كذلك. وسور القرآن منها ما وردت تسميته على لسان النبي ﷺ، فتكون توقيفية، ومنها ما سمته الصحابة ﷺ، واشتهر بينهم.

ولهذا قد نجد للسورة الواحدة أكثر من اسم؛ كما يقال مثلاً: سورة الإسراء، ويقال سورة بني إسرائيل، وسورة محمد، ويقال سورة القتال، وسورة براءة، ويقال سورة التوبة وهكذا. وهذه السورة، مع السورة السابقة "سبح"، عن النعمان بن بشير ﷺ(كان النبي ﷺ يقرأ بهما في الجمعة، والعيدين، حتى إنه ربما اجتمع يوم عيد، ويوم جمعة، فقرأ بهما في الصلاتين) رواه مسلم[1]، وما ذاك إلا لما تضمنته هاتان السورتان من المعاني الجليلة، والمواعظ البليغة.

من أهم مقاصد هذه السورة:

- **المقصد الأول**: تقرير الإيمان بالبعث، والجنة والنار. وهي القضية التي كان ينازع فيها مشركو العرب، القضية التي تؤثر تأثيراً بالغاً في مجرى الحياة، وسلوك الإنسان، فإن إيمان المرء بالبعث، والجزاء، والجنة، والنار، هو الذي يحدد مساره، ويجعله مؤمناً أو كافراً. فمن أقر بالبعث، وبوعد الله، ووعيده، بحث عما يرضي ربه، كي يسلم من وعيده، وينال موعوده. ولهذا كانت هذه القضية فيصلاً بين المؤمنين والكفار، ومَفرِق طريق بين الأبرار والفجار. كما أن أهل الإيمان، أنفُسَهم، يتفاوتون بقدر إيمانهم بها؛ فمن كان قلبه معموراً بالإيمان بالبعث، والجنة، والنار، انضبط، واتقى الله، ومن كان ضعيف الإيمان بهذه القضية، كثير الذهول عنها، فإنه يقع في المعاصي ويجترح السيئات. وهذا أمر مشاهد تجده في نفسك،

---

[1] صحيح مسلم (878).

فكلما قوي في قلبك الإيمان باليوم الآخر، ازدجرت عن المعاصي، وخفَّت نفسك إلى الطاعات، لأنك ترى أنك تدَّخر ليوم آت، وإذا خف ذلك في نفسك، وغاب، فإنك تقتحم المعاصي، وتفرط في الواجبات.

ويقال إن رجلاً سب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- فلما هم أن يرد عليه قال: "لولا اليوم الآخر لأجبتك". فإذا شعر الإنسان باليوم الآخر، أحجم عن كثير من الكلام، وكف عن كثير من الفعال، لأنه يعلم أن ذلك في صحيفته وأنه سيلقاه. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا..﴾ [آل عمران-30].

- **المقصد الثاني**: إثبات الألوهية بدلائل الربوبية، وهذا منهج قرآني رصين، وكثير، في كتاب الله .

- **المقصد الثالث**: بيان وظيفة الرسل، وهي الذِّكْرَى بالبشارة والنذارة كما تقدم في سورة الأعلى.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾: ﴿هَلْ﴾ قال بعض المفسرين أنها استفهامية، وليس المراد بالاستفهام من الله ما كان ناشئاً عن جهل حاشا وكلا، وإنما أريد به التقرير ولهذا قال آخرون معنى ﴿هَلْ﴾: أي قد، فيكون مآل الاستفهام إلى التقرير.

﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾: الحديث هنا بمعنى الخبر، والغاشية هي القيامة، سميت بذلك، لأنها تغشى الخلائق بأهوالها، أي تغطيهم، فمعنى الغشي: التغطية، يقال: غُشي عليه، أو مَغشي عليه، إذا غُطِّي على عقله، وتغشى بالثوب يعني تغطى كما قال تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ :أي تغطى اللون بظلامه، وقيل بالإضافة، بمعنى أن (الغاشية) غاشية القيامة، أوغاشية النار. فإذا قلنا غاشية القيامة، فإنها تشمل كل شيء، وإذا قلنا غاشية النار، فهي مضافة إلى النار. وهذا مأثور عن بعض السلف. فمعنى ذلك أنها تختص بالكافرين دون غيرهم. والأولى الحمل على العموم، لما أن الله تعالى عمَّم. وهو اختيار ابن جرير الطبري[٢]. وبهذا يتبين أن من أسماء القيامة الغاشية.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾: هذا بيان أثر الغشي، وعُبر بالوجوه عن الذوات، لأن الوجه هو أشرف ما في الإنسان، وهو الذي تظهر عليه الانفعالات؛ من الفرح، والحزن، والدهشة، والأسى، وغير ذلك، فإنه يتضح على قسمات الوجه. ومعنى ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي ذليلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: 39] أي هابطة. فالخشوع فيه معنى الذل، والخضوع، والهبوط. فوجوه الكافرين، والعياذ بالله، تكون ذليلة، منكسرة، مطأطأة. وليس المراد بالخشوع هنا الخشوع المحمود، من جنس قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون-2] ، فإن الكافرين لما لم يقع منهم خشوع في الدنيا، وقع عليهم الخشوع في الآخرة. وأهل الإيمان لما خشعوا لله تعالى في الدنيا، نضر الله وجوههم في الآخرة، فلا يجمع الله على عبد بين مخافتين،ولا يجمع له بين أمنين؛ فمن أمنه في الدنيا، أخافه في الآخرة، ومن خافه في الدنيا، أمنه في الآخرة.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾: معنى ﴿عَامِلَةٌ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه، وهم الكفار، يكلفون الأعمال الشاقة في النار؛ من جر السلاسل، والأغلال التي تكون في أعناقهم، وهذا أشد ما

---

[٢] تفسير الطبري (327/24).

يكون من الحبس، حتى في الدنيا، إذا أرادوا أن يغلظوا في عقوبة الحبس، يقولون: مع الأشغال الشاقة، قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١- ٧٢] ومعنى ﴿نَاصِبَةٌ﴾: أي ذات نصب، وتعب.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾: "تَصلى" بفتح التاء، أو بضمها "تُصلى" قراءتان، ومعنى ﴿حَامِيَةً﴾ أي شديدة الحرارة. فهي تحرق في النار، والعياذ بالله، فتحترق بها، وتمتحش من وهجها ولفحها.

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ﴾: الساقي ملائكة العذاب، والعين الآنية: هي المتناهية في الحرارة، التي بلغت في الغليان غايته. وقيل في معنى ﴿آَنِيَةٍ﴾: أي حاضرة، يعني كأن هذا الماء بمجرد ما يطلبونه، يكون مهيئاً، كما وصف الله في سورة الكهف: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ..﴾ [الكهف-29] فكلما بلغ منهم العطش مبلغه، و استسقوا أتوا بالماء في حينه، فما إن يقربوه إلى أفواههم، حتى تسقط جلدة وجوههم فيه، وذلك لشدة حرارتها، أجارنا الله وإياكم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾: لما ذكر الشراب، ذكر الطعام، وهو الضريع. الضريع: نبات من الشوك، تعرفه العرب، ليس فيه ورق، تعافه الدواب. فسماه الله بهذا الاسم، لدلالته على معنى سوء، وتسميه العرب الشبرق، واليابس منه هو الضريع، وقيل:إنه شجر من نار. فالله أعلم بكيفيته، لكنه الطعام المتاح لهم؛ شوك يزدردونه، فيقع لهم من الأذى، من جراء تجرعه، الشيء العظيم.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾: فلا يسمن آكله، ولا يقضي نهمته، ولا يشعره بالامتلاء، ولا يسكن ما يجد من الجوع. والشعور بالجوع مؤلم، يعرف ذلك من جربه، فيجتمع عليهم هذا الشراب متناهي الحرارة، وهذا الطعام الشوكي، الحارق لأجوافهم.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾: ما أعظم النقلة بعد هذا المشهد الرهيب، وبعد هذا العذاب الوبيل، الذي دل على النكد الحسي، والمعنوي، إلى صورة مقابلة على النقيض تماماً فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ تلك وجوه المؤمنين ومعنى ﴿نَاعِمَةٌ﴾: أي حسنة نضرة كما قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [عبس:٣٨- ٤١]، فعبر بالوجه عن سائر الذات، لكون الوجه هو مظهر الفرح، أو الحزن، والبؤس، أو النعيم.

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾: أي لسالف عملها في الدنيا، ﴿رَاضِيَةٌ﴾: أي حامدة لثوابه في الآخرة، فهي قد سعت في الدنيا، وحمدت سعيها في الآخرة.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: العلو هنا حسي، ومعنوي، فالجنة من أعلى المخلوقات، وفوقها عرش الرحمن، وعرش الرحمن: سقف الجنة، وبحسب حال المؤمن ومرتبته في الإيمان، تكون منزلته في الجنة. فلهذا كان الفردوس أعلى الجنة ووسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، فهي عالية في نعيمها وفيها من النعيم أعلاه. وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﷻ(أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧] متفق عليه [٣].

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾:أي لا يسمع في هذه الجنة أي كلمة من لغو، أو باطل. وياله من جو نقي، لا تسمع فيه كلمة زور، ولا هجر من القول! وهذا لا يحصل في الدنيا بحال، فهي مليئة باللغو، والفحش، والزور، والكذب، والبهتان، أما تلكم الجنة العالية، فبريئة نقية من كل ذلك.

---

[٣] صحيح البخاري (3244)، صحيح مسلم (2824).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾: النفس تحب الماء ومنظره، وجريانه، وتستروح له، فإذا سمع الناس بماء سارح، أو نبع فياض، في جهة من الجهات، شدو إليه الرحال وذهبوا ينظرون إليه، وإذا كان في بلادهم أنهار أفتخروا بها، كما قال فرعون عن دنياه ﴿..وهذه الأنهار تجري من تحتي..﴾ [الزخرف-51] . فلما علم الله أن هذا من ملاذّ عباده، قال في وصف الجنة: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ فمعنى ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ العين: نبع الماء. وجارية : سارحة. وليس المقصود بها عين واحدة، وإنما جنس العيون، فهي عيون سارحة تجري على أرض الجنة. ليست كأنهار الدنيا، لا تجري إلا بأخاديد انحفرت على مر الزمن.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ : ﴿سُرُرٌ﴾: المقصود بها ما يجلس عليه الإنسان، ويتكأ عليه. ومعنى ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾: أي ذاتاً، وقدراً، ومحلاً، فهي رفيعة في ذاتها التي خلقها الله تعالى عليها، وفي صفتها، وفي محلها. فهي في الجنة، التي هي (عِلِّيُّون)، والنفس تميل إلى الرفعة، والإطلال على ما دونها، فالأنهار من تحتهم، وهم من فوقها مشرفون عليها، وهذا غاية ما يكون في التنعم، والمنظر الحسن.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾: ما أحسن التقابل، السرر مرفوعة، والأكواب موضوعة! والمراد بقوله : ﴿أَكْوَابٌ﴾: الأقداح التي لا عُرَى لها، هذه هي الأكواب في لغة العرب، وتكون للشرب، ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾: أي مقربة، مهيأة، معدة لهم، فكلما أرادوا الشراب، كانت في متناولهم.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿نَمَارِقُ﴾: جمع نمرقة، والمراد بها الوسائد، ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾: أي مرصوص بعضها إلى جنب بعض، وهذا ما يطلبه أهل الترف، والثراء، فترى أحدهم في مجلسه وقد جلس بين كمية من الوسائد، يرتفق بها يميناً، وشمالاً، ويتكأ عليها، ويستند، فكذلك أهل الجنة، عندهم وسائد متراصة، يستندون عليها، ويتكئون، ويرتفقون، أي يضعون عليها مرافقهم. فهذه الوسائد تحفهم من كل جانب.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: المراد بها البُسط، وما تسميه العرب بالطنافس، التي يكون لها خمائل، خاصة. ومعنى ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي أنها كثيرة، منتشرة. فحيثما توجهوا، تستقبلهم هذه الزرابي مفروشة، معدة لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿عَيْنٍ آَنِيَةٍ﴾، ﴿ضَرِيعٍ﴾، ﴿سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾، ﴿أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾، ﴿نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، هذه الأسماء معلومة في الدنيا، لكن الأمر كما قال ابن عباس ﷺ ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء[٤]، ونقول أيضاً ليس في النار مما في الدنيا إلا الأسماء، فالأسماء واحدة والحقائق أو المسميات متفاوتة.

ومهما بلغ بنا الخيال لا يمكن أن نتصور هذا النعيم الحسي، وهذه اللذة، والسرور، والحبور الذي يعيشون فيه، لكن اللفظ يقرب المعنى المشترك للذهن.

فلفظ ﴿عَيْنٍ آَنِيَةٍ﴾ التي في النار، فيه معنى الحرارة المتناهية، وهذا أمر مدرك في الذهن، وإن لم تكن تلك العين الآنية في النار كعين حارة في الدنيا، ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ذلك الضريع الذي في النار، قطعاً ليس كالضريع الذي تعافه البهائم، والحيوانات في الدنيا، لكن فيه معنىً مشترك، وهو كونه شوكا، ولذلك تعافه البهائم، ففيه معنى الأذى، والمعاناة في تناوله. كذلك عند الحديث عن الجنة، تذكر(السرر)، (الأكواب)، (النمارق)، (الزرابي) فإن كل لفظ من هذه الألفاظ له معنىً في الذهن، فلا يمكن أن يكون المعنى الذي يعطيه ﴿نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ كالمعنى التي تعطيه ﴿زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، وذلك لأن هذا يتعلق بمعنىً يقوم في الذهن، وإن لم يلزم من ذلك أن يكون هذا مثل هذا. وقد جعل شيخ الإسلام بن تيمية، أحد المثلين في الرسالة التدمرية[٥]، على وجوب إثبات صفات الله، وأن إثباتها لا يلزم منه تمثيل، ما يكون في الجنة من أنواع النعيم، والحور، والقصور، والدور، والمراكب، وغير ذلك، فإن الأسماء واحدة، والحقائق مختلفة. فإن كان هذا التفاوت بين مخلوق ومخلوق،

---

[٤] تفسير الطبري (1/416).

[٥] انظر التدمرية (20-31).

فكيف بين الخالق والمخلوق؟! هذا هو المعنى المشترك. وفائدته: أن يفهم الخطاب، لأن الله تعالى لو لم يخاطبنا بما نعهد له مثيلاً في الدنيا، ما عقلنا مراده.

هذا حال أهل الجنة، بإزاء حال أهل النار! وشتان ما بين الصورتين. منظران متقابلان، بينهما بعد المشرقين! وحالان متباينان؛ حال أهل النار، ما يعانونه من أنواع العذاب الحسي، والمعنوي، وحال أهل الجنة، وما يتقلبون به من أنواع اللذائذ، والنعيم الحسي، والمعنوي.